وكان لهذه الحياة القاسية أن تتطلب محاربين أقوياء وأن تسعى إلى كثرة الرجال ووفرة النسل ، فهم عدة الحرب وحماة الحمى ، والذابون عن الحياض ، والحياة عندهم قوة وبأس شديد . وكان البطل الفارس يخلص من مغامرة ليدخل فى أخرى ، على جسد نحيل وقوام سمهرىّ ، شديد النشاط . لذلك ذموا من كان على عكسه سميناً ضخماً قصيراً ، يركن إلى الراحة ، ويستنيم إلى القرار والترف والخمول . على أنهم نظروا إلى المرأة نظرة أخرى فرأوا لها الترف والنعيم ، لأن وراءها رجلا يدفع عنها العمل والسعى والصنعة والحرفة ، فلا تقوم إلا لحديث أو زيارة ، من جارة إلى جارة ، تتعطر وتتزين ، وتفوح منها رائحة الجنان ، فهى نؤوم الضحى مترفة العيش — كما بسطنا فى كتاب الغزل —. واستحبّوا للمرأة أن تُغتَصب لتنجب ، وللزوج أن يَغضَب لينجب لأنه يفضل العنفَ والقوة فى كلّ شىء ، فيخطف المرأة من زوجها ويغلبه عليها ، على كثرة الحراس حولها .

ونتج من هذا كله مثل عليا نظروا إليها نظرة الاحترام هى القوة ، والكرم ، والشجاعة ، والبطولة . كما نظروا إلى ما يخلّ بها نظرة الاحتقار والهجاء والازدراء ، فكانوا يهجون العربى بالضعف ، والخور ، والكذب ، واحتراف المهن الحقيرة .

وتناولوه بالهجاء كذلك إذا كانت النساء عنده تعمل وتسعى فى البيت والمرعى ، وأثاروا هذه المثالبَ والمعايب ، وتحدثوا فيها ، وقال شاعرهم حولها ، فجسم الخطب ورسم العيبَ فى شكل يُزرى بصاحبه ويحط منه . ولم يقصد الشاعر بإبراز هذه المعايب نصحاً أو درساً ، وإنما روّى سهمه وأشبع سيفه وشفى قلبه ، انتقاماً وتشفياً معتمداً على الغضب والحنق ، لا على العقل والحلم والأناة . لذلك كانت أبيات الهجاء مقدودة من ألفاظ شديدة الوقع قوية الأسر ، نارية محتدمة ، لا تشبه فى شىء ما كان عند الغربيين من هجاء .

وقد وُلد الهجاء فيما رأينا عند العربىّ منذ نشأته ، فى الجاهلية ، وسار فى الإسلام كذلك ، ومشى على العصور ، فتأثر بالبيئة والإقليم والوسط والثقافة والوعى والمفاهيم . وسنعرضُ لألوانه على التسلسل ، فى مختلف المعايب الأخلاقية كما كانوا ينظرون إليها من خلال مبادئهم .